إضاءة

صاحب «التحرير والتنوير» بين أربعة أزمنة

آثار ابن عاشور موافقات منسيّة

مضت عقودٌ على التجربة البورقيبيّة وإرثه العلماني، وها هي مؤلّفات ابن عاشور تعود إلى الواجهة وتنتشر حتى خارج حدود تونس

نجم الدين خلف الله

عاصر المفكّر محمد الطاهر بن عاشور (1879 - 1973)، ثلاثة أطوار متباينة من الحُكم السياسي في تونس؛ فقد نشأ وشبّ تحت حكم البايات الحسينيّين الذين حكموها من 1705 حتى 1955، وكان جدّه لأمّه محمّد العزيز بوعتور أحد وزرائهم، ثم تطوّرت أفكاره طيلة الحقبة الاستعماريّة التي بسطت خلالها السلطات الفرنسيّة نفوذها العميق على الدولة والمجتمع. وعاش بعدها ما يناهز العقدَين تحت الحُكم الجمهوري بقيادة الحبيب بورقيبة الذي فرض نظاماً علمانياً، كانت أُولى قراراته، بعد الاستقلال، إغلاق «جامع الزيتونة» وتهميش الفكر الديني.

وتحت هذه الأشكال الثلاثة من الحُكم السياسي، أنتج ابن عاشور تفسيرَه الضخم «التحرير والتنوير»، ثمّ ما يزيد على ثلاثين كتاباً بعضُها لا يزال مخطوطاً. وقد صدر الجزء الأهمّ منها ضمن مجموعة شملت آثاره المتاحة باستثناء التفسير، وهي اثنان وعشرون كتاباً سبق أن طُبعت في حياته أو بعد وفاته، في إنجاز مشترك بين «دار ابن حزم» و«دار سحنون». وهو ما يُشرّع للتساؤل عن طبيعة العلاقات التي جمعت بينه وبين الدولة التونسية ومرجعياتها الثقافية.

في الطور الأوّل، اقتصر دور ابن عاشور على تشخيص مظاهر الخلل في الإيالة التونسيّة ولا سيما في مجال التعليم؛ فكانت باكورة أعماله، «أليس الصبح بقريب» (1907)، بدايةَ تفكير إصلاحي معمّق، مهّد له بوصف نظام التدريس في «جامع الزيتونة» و«المعهد الصادقي»، وبذلك وضع اليد على مكامن الداء ودعا إلى الإصلاح من داخل منظومة الحُكم الحسَيني، إذ كان يتحرّك في نطاقه بوصفه مدرِّساً ومُفكّراً، ثمّ من خلال وظائفه الرسمية كمفتٍ وكشيخ إسلام. ومن البديهي أنْ رَفضت سلطات الاحتلال مشروعه فضيّقت على الزيتونة وخنقت بوادر الاحتجاج ولا سيما سنة 1910، إثر مظاهرات طلابيّة ضدّ الهيمنة الفرنسية.

وفي الثلاثينيات، كان كتاباه «أصول النظام الاجتماعي» و«مقاصد الشريعة الإسلامية» تفكيراً في روح الإسلام الأصيلة من أجل إحيائها حتى تُواجه الحداثةَ وتستوعبها عبر البرهنة على عدم التعارض بينها وبين المقاصد والأصول الإسلامية التي لا تُناقض الحرية والعدالة والمساواة وحتى النظام الجمهوري. فقد بيّن أنّ الإسلام يتضمّن روح تلك المبادئ لأنها كونية وفِطرية. وقد كان هذان الأثران بالذات محاولةً جريئة للمواءمة بين قيم المُعاصَرة وجوهر الدين بعد أن نقّاه من شوائب الخرافة واللا-عقلانية.

وقد خُصّصت الأعمال الأُخرى للحقول التاريخيّة والأدبيّة واللغويّة، مثل تحقيق ديوانَي بشّار بن برد والنابغة الذبياني، إلى جانب صياغة مناهج لتدريس الخطابة والبلاغة والنحو، كما ضمّت مجموع الفتاوى والأحكام التي أصدرها بوصفه مفتيَ البلاد، وهي إجابات عمّا طرأ على الحياة المُعاصرة من قضايا مستحدَثة، أفتى فيها اعتماداً على المقاصد العليا للدين ومصالحه المُرسلة.

ولذلك، تأتي هذه المجموعة لتُذكّر بأصالة هذا الرجُل الذي خاض جلّ مجالات الفكر الإسلامي، تفسيراً وحديثاً، أدباً وتاريخاً، معتمداً نهج التحرير الذي يعني حلّ الإشكالات الظاهرة ونفي المفارقات التي تبدو لأوّل وهلة، ذلك أنّ النصوص الدينيّة قد تتضمّن بعض التناقضات بحُكم طبيعتها الشفوية الأصليّة، ومن ذلك أنّه خصّص كتاباً لشرح «موطّأ مالك» وآخر لشرح «صحيح البخاري»، ملتزماً فيهما بتوضيح ما ورد من إشكالات في الأحاديث النبويّة وبإشباع النظر في ما تركه الشرّاح القدامى من غموض أو اضطراب. ولعلّ هذا الطابع التقني الذي يتطلّب رصيداً معرفيّاً هائلاً هو ما جعل الساسة والقرّاء العاديين لا يُقبلون على أعماله، بحُكم أنّها موجّهة إلى النخبة: تجيب عن تساؤلاتهم وحيرتهم ولا تهمّ مشاغل الحياة اليومية بشكل مباشر.

وأمّا النظام البورقيبي فهمّش هذه الأعمال لأنّه رأى في علماء «الزيتونة» ومؤسّسة «مشيخة الإسلام» التي ترأسّها ابن عاشور امتداداً لحُكم البايات الذي ثار عليه واستمراراً للنهج التقليدي الذي لم يعُد قادراً، في رأيه، على بناء دولة حديثة. ويُشير بعض المؤرّخين، مثل هشام جعيّط، إلى عداوة تكاد تكون شخصيّة بينهم بحُكم أنّ بورقيبة قد ثار على نظام «البَلْدِيَّة»، وهي طبقة النبلاء الأرستقراطية بالعاصمة، ولذلك سجن بعض علماء الزيتونة مثل الشيخ محمد المختار بن محمود، في تصفية لرموز مرحلة البايات، سعياً إلى تجفيف منابع الفكر الديني.

> محاولة جريئة للمواءمة بين قيم المُعاصَرة وجوهر الدين

> اعتمد نهج التحرير الذي يعني حلّ الإشكالات الظاهرة

مضت عقودٌ على التجربة البورقيبيّة وإرثه العلماني، وها هي مؤلّفات ابن عاشور تعود إلى الواجهة وتنتشر حتى خارج حدود تونس، بما بذلك في ماليزيا ومصر ودول الخليج التي لم يكُن جمهورُها يمثّل المتلقّي المباشر لأفكاره. فهل بيّن التاريخ صوابية آرائه التي عاد إليها المفكّرون الآن، ولا سيما نظرية مقاصد الشريعة بوصفها أحد المداخل الممكنة للمواءمة بين الحداثة ومقولات الإسلام ومسلكاً ذكيّاً لإعادة إحياء النص الديني من خلال روحه ومعانيه العميقة، لا من خلال أحكامه الحرفيّة وبعضها مقترن بسياقاتٍ ثقافية قَبَلية مثل قواعد الجنايات والعبوديّة والاقتصاد الريعي وغيرها؟

لذلك، فإنّ الرهان المعرفي الذي تتضمّنه هذه الآثار هو إمكانيّة استنطاقها فتوظيفها كمرجع أو كنسق متكامل يتضمّن أجوبةً محتملة عن القضايا التي تشغل الفكر العربي المعاصر، فابن عاشور مصلحٌ ديني عالج قضايا عصره بأدوات متينة أتاحت فهماً واسعاً لنُصوص الدين، وأظهرت معقوليّتها وإمكان مواءمتها لقيم الحداثة الكونية. إلّا أنّ ابن عاشور لم يُرد، مثل غيره من الإصلاحين كمحمد عبده ورَشيد رضا والعقاد، الانغماس في حُمّى السياسة، بل خاض غمار الفكر النظري وأجاب عن إشكالاته متسلّحاً بالمعرفة اللغويّة الدقيقة ليحلّ أكثر المعضلات دقّةً ويُمهّد بذلك لهذا الفكر أن يلج عالَم الحداثة من بابها الكبير. والمأمول أن ينكبّ المختصّون في الشأن الإسلامي على البحث في الأجوبة التي صاغها الشيخ في هذه الآثار وفي الحلول التي اقترحها لتجاوُز العقبات العويصة التي تُواجه المسلمين اليوم، بعيداً عن التنظير المثالي وشذوذ الفتاوى. ولهُم أن يُحلّلوا ما في هذه المجموعة من آراء بوصفها علامةً فارقة في تاريخ العقل الإسلامي وتعبيراً من تعابيره في مواجهة الحداثة واستيعاب تناقضاتها. فهي محاولة جادّة في ربط المقاصد الدينيّة بقيم الحداثة، ضمن نطاق الجامعة الإسلاميّة التي تتألّف من دولة يحكمها القانون ولها سيادة، يكون الفرد - المواطن مركزها ومنتهاها.

لكن يظل السؤال قائما: لماذا لم تلتقط السلطات التونسية على اختلاف مشاربها وأجهزتها هذه المواءمات التي برهن عليها الشيخ، ولم تعمل بها، وظلت تبحث تائهةً عن نماذج للنهوض في الشرق والغرب، أبان التاريخ المعاصر عن فشلها جميعا وعدم تناغمها مع الشخصيّة العميقة لتونس وللتونسيين؟

(كاتب وأكاديمي تونسي مُقيم في باريس)

محمد الطاهر بن عاشور في عملٍ فنّي

يظل السؤال قائماً

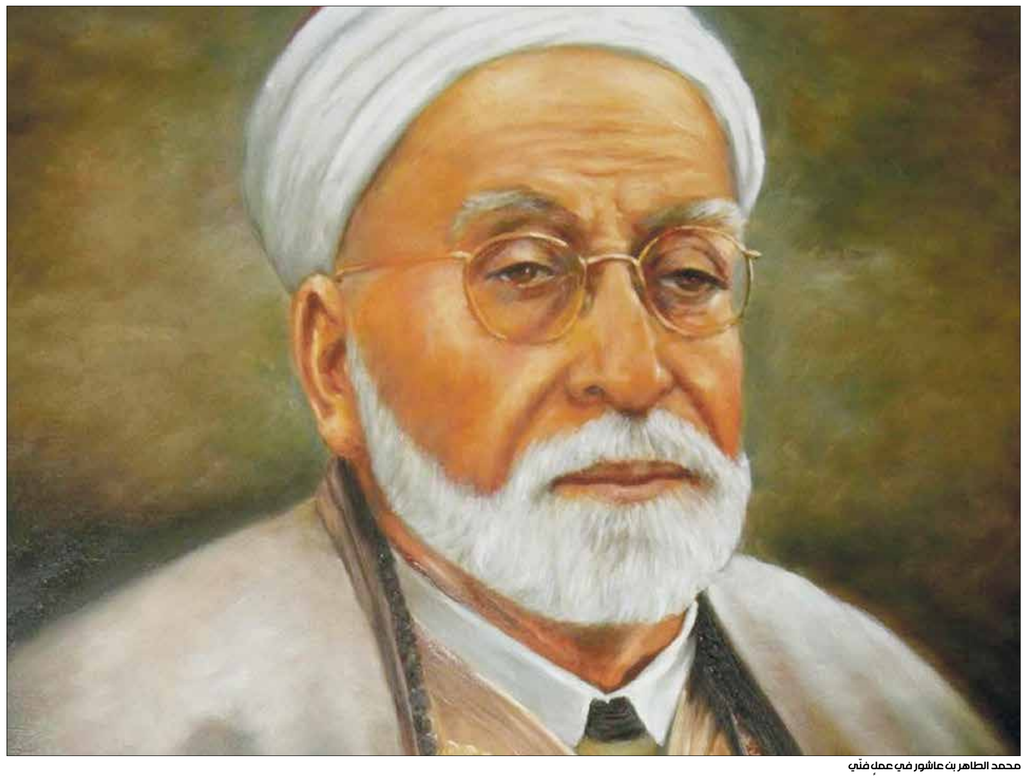

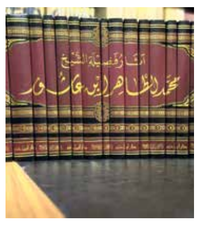

الرهان المعرفي الذي تتضمّنه هذه الآثار هو إمكانيّة توظيفها كنسق متكامل يتضمّن أجوبةً محتملة عن القضايا التي تشغل الفكر العربي المعاصر. لكن، لماذا لم تلتقط السلطات التونسية، على اختلاف مشاربها وأجهزتها، هذه المواءمات التي برهن عليها الطاهر بن عاشور، ولم تعمل بها، وظلّت تبحث تائهةً عن نماذج للنهوض في الشرق والغرب، أبان التاريخ المعاصر عن فشلها وعدم تناغمها مع الشخصيّة العميقة لتونس وللتونسيّين؟

صوت جديد

هناك الكتابة فقط

يسر برّو

تقف هذه الزاوية من خلال أسئلة سريعة مع صوت جديد في الكتابة العربية، في محاولة لتبيّن ملامح وانشغالات الجيل العربي الجديد من الكتّاب

بيروت ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟
ليس هاجساً واحداً الذي يشغلني، لكن يمكنني القول بأنني أتمنى ألّا نكتفي بالتعاطف وحده، وأن نعمل على أن نكون فعّالين في مقاومتنا بمختلف الطرق المتوفرة لدينا.

■ كيف تفهم الكتابة الجديدة؟
لستُ ميالاً إلى المصطلحات التي تصنّف الأشياء بعيداً عن جوهرها، لا أعرف ما الذي تقصدونه بالكتابة الجديدة، بالنسبة إلي هناك كتابة فقط، وهي أمر أفضّل عدم تعريفه.

■ هل تشعر نفسك جزءاً من جيل أدبي له ملامحه الخاصة؟
لا.

■ كيف هي علاقتك مع الأجيال السابقة؟
أفهمهم، وأحبهم، وأحاول ألّا أصير مثلهم.

■ كيف تصف علاقتك مع البيئة الثقافية في بلدك؟
علاقة حب أركز فيها على أهمية مساحتي الشخصية.

■ كيف صدر كتابك الأول وكم كان عمرك؟
حصلتُ على منحة للتفرغ لكتابة روايتي الأولى «أغنية الربيع القاسي» من مؤسسة اتجاهات الثقافية عام 2021، أنهيت كتابتها وتنقيحها بحلول العام 2023، وكان عمري 25 سنة حينذاك. وصدر الكتاب عام 2024 مع دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.

> التعاطف وحده لا يكفي وعلينا أن نكون فعّالين في مقاومتنا

■ أين تنشر؟
حتى الآن لم أنشر سوى رواية واحدة مع دار ممدوح عدوان.

■ كيف تقرأ وكيف تصف علاقتك مع القراءة: منهجية، مخططة، عفوية، عشوائية؟
عفوية.

■ هل تقرأ بلغة أخرى إلى جانب العربية؟
أقرأ بالإنكليزية أحياناً.

■ كيف تنظر إلى الترجمة وهل لديك رغبة في أن تُتَرْجَم أعمالُكَ؟
الترجمة من أجمل الأشياء التي يمارسها البشر، وسأكون سعيداً إن تُرجمت أعمالي إلى أيّ لغة أُخرى.

■ ماذا تكتب الآن وما هو إصدارك المقبل؟
منذ فترة أنجزتُ مجموعة قصصية أتوقع أن تُنشر خلال النصف الأول من عام 2025. في هذه الأثناء أكتبُ مجموعة شعرية صغيرة، وأعملُ ببطء على روايتي الثانية.

بطاقة

كاتب ومصوّر سوري من مواليد عام 1998، صدرت له: رواية «أغنية الربيع القاسي» عن دار ممدوح عدوان (2024).

يسر برّو

شعر

تُشير إلى العالم وتتحدّاه أنْ ينسى

قصائد من الهند إلى غزّة

سابيثا ساتشي

خرائط النجاة

(إلى غزة، 2014)

قُل لي الإحداثيات المكانيَّة للشريط الأرضي
هل تظلّ اتجاهات حدوده سائلة، هل تستحيل
الجدرانُ أنفاقاً وتصنع خريطةً أُخرى تمتد
من دون أن تخضع إلى مسح، تقاطعُ صاروخيٌّ من
الدروب البريّة المتقاطعة التي تهرب من الجوع اللانهائي
تحت سماء صهيون المترامية؟ أخبِرني عن أنفاق المنفى
حيث تضمن بضعةُ أرغفةِ خبز أو شريط
طاولاتٍ أو لُفافةُ ضماداتٍ نجاةَ البعض
لكي يرووا حكاية الشريط الذي تتقلّص حدوده
باستمرار، والذي يستمرّون بالنجاة داخله، ولكن من دون
أن يُعلِموا رسّامي الخرائط بأنَّ الشريطَ مكانٌ
العيشُ فيه مقاومة، والخبز فيه
تحدٍّ، وأشجار الزيتون احتجاجاتٌ على الحدود.

تعالوا وشاهدوا هذا الشريط الأرضي،
حيث أنقاضُ مقابر
أطفالنا تُشكِّل مقبرة رماديَّة البَياض،
تُذكِّرك بأن الشريط
ليس أرضاً محصورة، لا تحتويه أشعَّة الموت
من سماء صهيون، ليس رثاءً يقف عند الحدود.

إنما هو إصبعٌ فقيرةٌ جائعة
يرفعها طفلٌ جالس
على كرسي مكسور في باحةِ
مدرسته التي تعرَّضت للقصف
تُشير إلى العالم
وتتحدّاه أنْ ينسى.

هرباً إلى مصر

لا نتلكّأ على رمال الصحراء
الغدّارة التي تدوّمُ حولنا
ونحن نسعى قدماً نحو أرض المنفيين –
الحِمار مُثقَل بانتفاخات حديثة
ومولودنا الجديد ينوح إلى الأبد
على صدري المنتفخ فوق بطني المتألّم
وزوجي الأكثر سذاجةً من أنْ
يؤمن بتلك الأحلام الملائكية.

العطش يُخلّل حناجرنا كالصبّار
يضيّق خناقه علينا، بكثافة ومكر
والريح الباردة تشقُّنا،
ذيلُ عقربٍ يعدو في ضوء القمر.
قروح ولادَتي تنبض مثل دقّات قلبِ
طفلي الأعزل الذي لا ينفك يحلم
بالمنِّ والعسل ورائحة المُرّ.
ماذا يعرف الحكماء عن أسى الأم؟

تسرَّبت الأخبار إلى الكهف مثل قطرات
من دَلاةٍ جليد
عن الأطفال الذين ذُبحوا بسخط في أماكنهم
عن ابني الذي لا يعرف، ذرفتُ دموعاً قاسية
لا تذرفها إلا أمٌّ يافعة – عن الندم وتحقّق الراحة.
رَحِم راحيل ينوح في نومي لأنهم ما عادوا كذلك
والكهف البارد يُجهدني من رعشات الذعر والفزع.
حتى أحلامي ترتطم بالحوافر التي لا تني
مُنذرة بمجيء هيرودس المتزعزع الذي لَم
يُحرَم من وريث.

هكذا، أيها الأعزاء، تعلَّمت أن أُهيِّئ قلبي
فقد عرفت أن الحزن تلو الحزن سيأتي في أعقاب هذا الطفل
الذي يتبعُنا من الجليل إلى القدس والناصرة
لكي أُهَدهِدَ جسمه المكدوم في حضني الفارغ.

حجارة

الحجَرة الأولى
ضد العسكريّ الذي صوَّب
فوَّهة بندقيَّته على الولد البالغ أحد عشر عاماً.
الحجَرة الثانية
على جبهة الضابط الذي يرتدي الكاكي
الذي اغتصب نيلوفر الشابَّة في البيت المجاور.
الحجَرة الثالثة
على الشرطي الذي استجوب
ذُلَّ أبي الرّاكِع بأعوامه السَّبعين.
الحجَرة الرابعة
على حلق مذيع التلفاز بصوته الحاد
الذي وصفَ أشجار الدُّلْب الشاهقة بالإرهابيين.

التالية
حجرةٌ تذكارية عند شاهِدة قبر
الإنسانيّات، التي تنزُّ زُرقةً، شيئاً فشيئاً، على صحن العدس المُجمَّد.
ثم حجَرةٌ
لشفوفيَّةِ الكشميريّاتِ التي لا تَطرف،
التي تتلألأ مثل الزجاج في أحلامَ فَيض
أحمد فيض الهشَّة.
ثم أُخرى
لقيامةِ الدوّامات الدائمةِ
لأثواب الدراويش الصوفيين البيضاء.
واحدة
لفناجين القهوة والزعفران، التي تُرشَف
جلوساً على السجادة مع الصديق السِّردار
وواحدة
لبُرج المعبد شَبَهِ الأنف الحاد، الذي يهرع
كل ليلة باتجاههما، مثل مرثيَّة مستعجلة.
واحدة
للحدائق عديدة الألوان، التي تعوم مثل غيومٍ
على مياه البُحيرَة المُنهَكة.
واحدة
لجميع الرسائل الناقصة في جميع صناديق البريد
في بلاد شاهد علي التي تخلو من مكاتب البريد.
واحدة
لأغنية العاشقة المُبعَدة
في يد هَبة خاتون، الرّاضِخة لشهوة الكلمات.
واحدة
للسموات الزرقاء اللانهائية فوق جبل كايلاش
حيث تؤدي لالّا رقصة شيفا بجنون.

الحجَرةُ المئة وسبع وعشرون
للأوقات الضائعة لجميع الطُفولات التي
لَم تحدث قط
للوقت.

(ترجمة عن الإنكليزية: أنس طريف)

سابيثا ساتشي

بطاقة

Sabitha Satchi شاعرة من مواليد كيرلا، الهند. درست في كيرلا ودلهي ولندن، ودرَّست اللغة الإنكليزية في جامعة دلهي لخمس عشرة سنة. نُشرت قصائدها في عدد من الأنطولوجيات الشعرية، من بينها «الغناء في الظلام» (دار بنغوين راندوم هاوس، 2021)، و«ديوان بنغوين للشعر الهندي المعاصر» (دار بنغوين، 2021)، كما تُرجمت إلى عدد من اللغات العالمية. نالت منحاً وزمالات وجوائز، من بينها جائزة فيلوبّيلي سريرخا للشعر المكتوب بالماليبارية (حيث تكتب باللغتَين الإنكليزية والماليبارية). القصائد التالية من مجموعتها الشعرية الأخيرة بالإنكليزية التي تحمل عنوان: «الآخرة».

فعاليات

تحت شعار **أنقذوا غزّة**، تستمرّ في مدينة قليبية التونسية، حتى السبت المُقبل، فعاليات الدورة 37 من **المهرجان الدولي لفيلم الهواة**، والتي تتزامن مع الذكرى الستّين لتأسيس المهرجان عام 1964. تتضمّن التظاهرة، التي انطلقت السبت الماضي، عروض أفلام وورشات تدريبية، إضافة إلى مسابقتَين في الصورة والسيناريو.

يحتضن «مسرح السرايا العربي» في مدينة يافا، عند الثامنة من مساء الأربعاء المُقبل، فيلم **جَنين جنين** (2023)، للفنّان الفلسطيني **محمد بكري**. بعد 21 عاماً من إنجاز فيلمه «جِنين جِنين» (2002)، يعود بكري، في هذا الوثائقي (60 د)، إلى مخيّم جنين، ليوثّق آثار الدمار الذي خلّفه اجتياح جيش الاحتلال الإسرائيلي العام الماضي. تلي العرضَ جلسة نقاشية مع المُخرج.

تنطلق اليوم في «ساقية عبد المنعم الصاوي» بالقاهرة فعاليات الدورة الرابعة عشرة من **معرض الساقية للكتاب**، وتتواصل حتى السابع والعشرين من الشهر الجاري. تضمّ التظاهرة، التي تهدف إلى «تأكيد أهمّية الكتاب في نشر الوعي بالمجتمع»، عدداً من الندوات الأدبية والثقافية، إلى جانب ورشات عمل ومسابقات وجلسات لتوقيع الكتب.

عند الثامنة من مساء غدٍ، يُعرض في فرع «مؤسّسة شومان» بمدينة الزرقاء الأردنية فيلم **ولا واحد أقلّ** (1999)، للمُخرج الصيني **زانغ ييمو**. يروي الفيلم (106 د)، قصّة فتاة تُصبح معلّمة بديلة في مدرسة القرية، لكنّها لن تحصل على أجر إلّا إذا حافظت على عدد طلّابها كاملاً، غير أنّ أحدهم سيهرب إلى المدينة للبحث عن عمل.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

فداء الحسنات
كاتبة

هل يمكننا اعتياد المشهد؟

مرّ شهرٌ منذ تساقط أوّل أوراق الخريف، الخريف الذي حلّ علينا فصلاً وواقعاً، لقد كانت أجسادنا تتهيأ لنسماتٍ باردة، بعد فصل صيفٍ حارق، لم نكن نعرف أننا سنتلقّاها كنصل سكاكين في أرواحنا، أيّ زمان هذا الذي نعيشه؟ زمنُ الخوف سيّده وخادمه، زمن محا حزن الأزمان السابقة، فها نحن نعرف معنى آخر للحزن، لقد رأيت حزناً في عين صديقتي يكاد يغرق البلاد كلها..

مرّ شهر وأنا ما زلت أقاوم الخروج من المنزل، لا أستطيع إدراك ما يحدث لنا، وكأنني إن شاهدت ما يحصل خارجاً فسوف أتلف ذاكرتي المليئة بأنوار المدينة التي تنسحب من جانبي، وأنا متكئة برأسي على نافذة السيارة تتلاعب النسمات الصيفية بوشاحي، وموسيقى أم كلثوم تداعب المشهد في عقلي، لقد كنت أرغب في حماية هذا المشهد والكثير الكثير من المشاهد التي كنت سأحتفظ فيها بذاكرتي حتى إن صرت عجوزاً قلبها يعيش لأنه رأى جمال الحياة وأنسها وصدّقه..

اليوم الأخير من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، كانت المرّة الأولى التي أخرج فيها من البيت بعد بدء العدوان، أول مرّة تبدأ عيناي بالسير حزينة الدهشة من كل ما تراه، لقد خرجت يومها بعد مئة اعتراض ومئة تردد من والديّ وأخي «كيف ستذهبين للعمل تحت القصف»، وكانت إجابتي يدركونها جيداً لكن خوفهم وقلقهم شكّل مبرراً كافياً لكل أفعال التردد «سوف يدركني الموت أينما كنت، لا مخبأ منه». أنا الخائفة جداً من الموت، أعرف جيداً أنني لا بدّ أن أحمل هويّتي في جيبي كي يتعرّفوا على جثتي، وجودها في جيبي سيكون أسهل على المسعفين بأن يكتبوا على كفني «فتاة، سمراء، ذات جسد نحيل، وأحلام كبيرة».

لقد أعلمونا في المؤسسة أن فريق العمل سوف يبدأ بالعمل الميداني، وبأنني لستُ مجبرة على العمل في حال شعرت بالتهديد أو الخوف، لكني لم أشعر بأن لدي خياراً آخر، فإما أن أنتظر الموت مختبئة في بيتي، وإما أن أخرج لأواجه خوفي وأكون عوناً لبيتي في زمن صارت لقمة العيش تساوي سعر رحلة سياحية إلى دولة أوربية، وربما أجد معنى لأيامي حين أساند عائلتي بكل ما أستطيع، سوف أتغلّب على خوفي، وأرقي، سوف أبحث عن قيمة للوقت الذي ينسحب من تحت أقدامنا ومن أعمارنا ونحن في انتظار موتٍ لا يجيء.

■■■

فتحتُ خزانتي أبحث بين ثيابي عن شيء يشبه أن تكون تحت الحرب، يشبه الخوف الذي سوف أمشيه، يشبه الموت الذي يمكن شمّه، تحرّكت يداي بين ثيابي تحاول أن تزيح ثياب الفتاة السعيدة المتفائلة دائمة الاحتفال، وتبحث عن ثياب الفتاة التي تشعر ببرد كل جثث الفتيات تحت الركام، وتسمع صمت اليتيمات، الأرامل، والمبتورات الجسد والروح، خرجت يومها ألبس اللون الرمادي وكأنني بيتٌ تُرك واقفاً وحده بين كل البيوت المقصوفة.

كنت أمشي مع صديقَيّ بيسان وغسان يُمسك كلٌّ منّا يد الآخر، تارة ينادي أحدنا الآخر، وتارة أخرى، يلتفت كلٌّ منا إلى الآخر كلّ ثانية، ونتشارك فعل الدهشة لرؤية المشهد الرمادي للخريف في وجوه الناس وعلى الأرصفة، والهواء الرطب الذي يأتي زاحفاً من بين أقدام الأطفال العارية.

بدأت عيني بإدراك الوجوه الكثيرة الجديدة التي تطأ مدينتي ربما لأول مرّة في حياتها، وجوه بدت تائهة تحمل في ملامحها أسئلة كثيرة، وددتُ لو كنت دليلها في ذلك الوقت، كأن أكون الشخص الذي يحمل كل الإجابات، لكنّني أيضاً تائهة مثلهم بل أكثر، أنا التي لم أنزح مرّة حتى هذه اللحظة، ولم تتغيّر على العناوين ولا الأرصفة.

حين شاهدت ركاماً لأول مرة، كانت رهبة الحجارة على الأرض تدفعني إلى أن أقف احتراماً لكل هذا الأمان المذبوح، أنظر إلى غرف النوم الملقاة على الرصيف، صوت الهمسات الضاحكة التي كانت تزين سقف هذه الغرفة، ورجفة برد يتسلّل إليه دفء طفل غفا في حضن أمّه، أعدّ كاسات القهوة وفناجينها بجوار سرير شابٍّ يؤنس وحدة سهرته بصوت التلفاز مرتفعاً، وبشاكيرُ تحمل هوية صاحبها من رائحتها، صوت الكلام الذي يخرج صارخاً في الخلافات العائلية يبدو كموسيقى حزينة الآن، ومشهد تمايل فتاة أمام مرآتها بدلالٍ وكأنها آخر الإناث، لقد بكيت حينها بعددٍ الأحلام التي تناثرت مع الشظايا في الهواء، وتساءلت: هل نموت بدون البيوت أم تموت البيوت بدوننا؟ لقد مات زوج عمّتي، سكتَ قلبه متأثراً بما حل ببيته.

■■■

كنتُ أمشي بيديَّ الحرّتين لا أحمل حقيبة كبيرة ولا كيس طحين، لكنّي مشيت بثقل ظهر محني من ثقل المشهد، ثقيلةٌ خطوتي والطريق ثقيل، والموسيقى في رأسي يختلط معها صوت القصف فتجعل المشهد يبدو غير حقيقيّ، وكأنه مشهد محذوف من فيلم بسبب قسوته وخدشه للأمان، من دون أن تهزُّني يد الواقع، توقظني من كابوس ملموس، فأصدّق بأننا نموت ونهجّر، تسلب منا بيوتنا والطرق، وأننا جائعون ولا يوجد ما نأكله، وأننا ننزح ونتعلّم معنى النزوح ونصدّق حدوثه، لقد شاهدت بكاءً بملامح طفل، وبؤساً بملامح امرأة، وعجزاً بملامح رجل، رأيت الحزن يأكل المدينة بأكملها، لقد رأيت كل هذا وأكثر.

لم تجرؤ يداي أن تفتح الكاميرا في هاتفي، أنا التي كنت أوثّق الجمال سابقاً، الفرح الحب والأصدقاء، كيف لهذا التحوّل أن يستوعبه عقلي، وعيني التي كنت أحبها وأعتبرها الجزء الجميل فيّ صارت ترصد الملابس الممزقة، والأرصفة المكتظة، والمدارس التي صارت ملاجئ لا تحمي من يلجؤون إليها من الموت.. مدارس، وصفوف، وفرشات وبطانيات، وحقائب مدرسية فيها قطع ملابس صيفية، وجرادل مياه، وحمامات جماعية، وحبال غسيل لا تنتهي، وغيمة سوداء سببها حطبٌ ونار، ومعلبات طعام، وكارة وحمار، وأقدام مغمسة بمياه المجاري، ولوحات ملصقة على أبواب المحال التجارية مكتوبٌ عليها لا يوجد بضاعة، خيام تنصب، وطابور تكية، وقطط نازحة، وموج بحر لا يجدد سوى الحزن فينا..

■■■

لقد كانت غزّة كلها أشبه ببيت عزاء، يمشي الناس مواسياً بعضهم بعضاً رغم تشابه الحزن، رغم تعاظم الثقل، تبكي سيدة على ابنها الذي استشهد، فتواسيها سيدة أخرى ابنها مفقود وتخبرها بأنها على الأقل تعرف مكانه حتى لو كان تحت الأرض، في غرفة مجاورة لهم طفل فقد أمه أمام عينيه، ولكنه يبكي لأنه حافٍ فقد حذاءه وهو هارب من الموت، ويصرخ رجلٌ بأعلى صوته ينظر إلى يديه ويبصق في وجه العالم لأنه دفن ابنه بيديه الاثنتين، ولأنه يموت في اليوم ألف مرّة.. موت موت وألف موت وما زلت أحاول أن أجعل قدمي ثابتتين ظاهرياً كي لا أسقط أمام هذا السواد.

كنت أذهب إلى العمل مشياً، فالسيارات مشغولة بفصل الناس عن بيوتهم ومدنهم، تحمل الوجوه العابسة جيئة وذهاب، لو فتشنا في ذاكرة السيارات لرأينا تاريخاً كاملاً يكتب بالبكاء والصلوات، بالمكالمات التي تتعذر، بكلمات الوداع، بجملة «اذهبوا أنتم أولاً وسألحق بكم» الكاذبة، وإن شعرت بالتعب لا بد أن أركب على كارة حمار كي يوصلني إلى نصف الطريق، أركبها لأول مرة في حياتي، وأشعر بأن حزني مكشوف جداً.

كنتُ أظن أننا نعيش شيئاً مؤقتاً سينتهي خلال أيام، حتى مرّت الأسابيع والشهور ونحن نتعمّق أقدامنا في الوحل أكثر، وحزننا صار يورّث، لقد وُلد أطفال جدد يحملون بؤس أهاليهم، تقول لي سيدة: «لو كنت أعرف أننا سنعيش أياماً كهذه، ما كنت حملت» وتقول لي صديقة: «لأول مرة أحمد الله أنني لا أنجب أطفالاً»، لقد حزن الأطفال حزناً ثقيلاً تراه في أيديهم وهم يحملون جرادل الماء، وهم نائمون على الرصيف، وهم يمدون أيديهم للناس، يطرقون الأبواب باحثين عن الطعام، تراه في بكائهم وهم تائهون عن أهاليهم في زحمة مدينة النزوح الكبيرة، وأسأل الله: «كيف يمكن حماية الأطفال من الحزن؟».

يوماً بعد يوم، ينغرس المشهد في عيني كفزاعة تطرد كل عصافير أحلامي الجميلة، وعقلي يرفض تصديق ما يحدث، مهما تجرأت يداي في توثيق الإبادة، توثيق شكل الحياة الجديد، حزن الأطفال، تراكم الخيام، هل هذا هو واقعنا الجديد؟ غياب الأصحاب، والخوف عليهم، وأعياد ميلاد من دون كعكات، ووداع مسافر لا يعرف تاريخ العودة، وانتظار أخبار البيوت، ومذاق فم نسي طعم اللذة، وهدنة كاذبة، وشتاء قاس، وبرد لا يفرق بين بيت وخيمة، فهل يمكننا اعتياد المشهد؟ هل سيأتي يوم وأستمع لخبر مجزرة حدثت في مدينة مجاورة وأستمر في تناول الطعام؟ هل سينسيني الجوع الشعور برهبة الموت الذي يلاحقنا؟ هل ستراودني أحلام جميلة في ليلة لم تهدأ فيها الزوارق؟

■■■

والآن بعد مرور ثمانية أشهر على بدء حرب الإبادة، أستطيع أن أجيب عن شعب كامل، لا، لن نستطيع أبداً اعتياد المشهد، الغصة في قلوبنا تزداد في كل لحظة، حتى وان شاهدتهم مشهد عروسين في خيمة، حتى وإن رأيتم ضحكة تضيء من عيون الأطفال، حتى لو سمعتم صوت غناء، إنها الروح تتخبط في انتظار موتها، تريد أن تسرق من الحياة لحظة تشعر بها بأنها على قيدها.

1 حزيران/ يونيو 2024
دير البلح

هل نموت بدون البيوت أم تموت البيوت بدوننا؟ لقد مات زوج عمّتي، سكت قلبه متأثراً بما حل ببيته

محمد عبيد
كاتب

تجربة اعتقال

في نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي، وكان يوم جمعة، عند الساعة الحادية عشرة، سمعنا أصوات الدبابات تتجه إلى منطقة عايدية التي نسكن فيها، وتقع في محيط مشفى الشفاء. اشتباكاتٌ عنيفة يتبعها قصفٌ شديد عبارة عن أحزمة نارية لا تتوقف. وعلى الفور، تجمعنا نحن أفراد العائلة المكونة من ثلاثة عشر فرداً في الطابق الأرضي، تجنباً لشظايا القصف. بعدها قررنا النزوح إلى الجنوب، بخاصة بعد أن أطلقت طائرات الكواد كابتر، النار علينا بشكل مباشر فأصيب فردان من العائلة بجروح متوسطة في الصدر والقدم.

في اليوم التالي، تواصلنا مع الصليب الأحمر للتنسيق لنتمكن من الخروج بعد ليلة صعبة جداً من القصف، إذ لم تتوقف الأحزمة النارية والقذائف العشوائية. اعتذر الصليب الأحمر عن عدم تمكنه من الوصول إلى المنطقة لشدة القصف فيها. سمعنا أنّ إحدى قريباتنا جرى التنسيق من أجل إخراج عائلتها من المنطقة المحاصرة، لكننا فجعنا بخبر استشهادها، إذ أطلقت النار عليها بشكل مباشر لتلقى حتفها على الفور، على الرغم من أنها كانت تمسك بيدها طفلا صغيراً وتمشي مع مجموعة من النازحين يحملون الرايات البيضاء. أصابنا الحادث بالذعر، ولازمنا المنزل حيث مرّت الأيام صعبة جداً، نفد فيها الطعام والماء وكنا نكافح للبقاء. وفي اليوم الرابع، وردنا اتصال حول تنسيق لإخراجنا من المنزل عبر الصليب الأحمر.

خرجنا ثلاثة عشر شخصاً لا نحمل من أمتعتنا شيئاً، فقط علماً أبيض. مع ذلك أطلقت النار علينا بشكل مباشر وكانت الدبابات تقف على جانبي الطريق، في كلّ مفترق من مفترقات شارع الوحدة، وعند كلّ مفترق نمر به تطلق النار علينا. لقد فجعنا بمشهد شهداء من أطفال ونساء على الأرض. بدأ الناس ينادون علينا من النوافذ يطلبون منا أن نعود إلى منازلنا، فالمكان خطر جداً: «سيقتلونكم».

والدي وبسبب هول ما رأى، قرر العودة إلى المنزل. في منتصف الطريق، بكيتُ ورجوته أن نتابع لأنه لو عاد سيقتلونه بكل تأكيد. وبعد مدّ وجزر، وافق والدي على المتابعة. بصعوبةٍ بالغة تمكّنا من الوصول إلى مفترق الشوا. وما إن وصلنا إليه، حتى قُصف المنزل المجاور لنا، فأصيب والدي بنوبة قلبية شديدة لصعوبة ما مررنا به.

في اليوم التالي، توجهنا أنا ووالدي وعمتي وأبناؤها وزوجها إلى الممر الآمن حيث يسمح الجيش للناس بالمرور من الشمال إلى الجنوب، وأثناء عبورنا الممر الآمن سمعنا صوتاً يقول: «صاحب البنطلون الأبيض والذي أمامه توجها إلينا». أشرتُ إلى الجندي الذي كان يبعد عنا قرابة مائة متر على تلة رملية مرتفعة، أسأل «هل أنا المقصود؟». أومأ برأسه بالإيجاب. توجهتُ إلى هناك لأصبح ضمن مجموعة من المحتجزين من النساء والرجال والأطفال، لم أشعر بالخوف لأنني على يقين بأنني سأغادر بعد وقت قصير. في إجراء أولي، طلب الجندي من كلّ واحد منا رفع هويته وذكر اسمه رباعياً. وبعدها بدأ الجندي بذكر أسماء المحتجزين، ومنهم من دعاه للمغادرة، ومنهم من طلب منه الاقتراب إليه. بعد ساعة نادى الجندي اسمي وقال: «اقترب» وأمرني أن أعبر من طريق محدّد. كانت قناصة في الأعلى تصوب بندقيتها نحوي بحذر شديد. طلب مني خلع ثيابي والحذاء والتقدم إليه، ثم جاء أحدهم وقيدني وعصب عينيّ مع دفعة في وركي لم أفهم لها سبباً!

ما الذي يجري؟

أخذوا كل مقتنياتي ووضعوني على جبل من الحصى الخشنة، بلا ثياب لساعات طويلة، مع تناوب الجنود على ركلي وضربي ليأتي بعدها ضابط اسرائيلي، ويقول لي: «شفتك في أحداث 7 أكتوبر (تشرين الأول 2023) تقتل جنود». أجبته: «لا. ما قتلت حد وعندي إثباتات على هيك؟!». شبّ غضباً واستمر بضربي.

أول يوم اعتقال كان من أصعب الأيام، والليلة الأولى كانت من أقسى الليالي.

نهاراً، تناوب الجنود على ضربنا بشكل مبرح. حقد وغلّ ينبعثان من عيونهم إذ كانوا يقنعون أنفسهم بأننا شاركنا في أحداث السابع من أكتوبر. وكانوا يضربوننا بلا رأفة. في الليل نقلونا في باص إلى موقع عسكري آخر. في منتصف الطريق، كانت الدنيا تمطر فأنزلونا من الباص، وكنا بلا ثياب، في البرد القارس، مكبلي الأيدي والأقدام ومعصوبي الأعين. وضعونا على جبل من الحصمة (حصى كبير)، وضربونا بأيديهم وبنادقهم مع المطر الغزير حتى كدت أفقد الوعي. كنت أشعر بأنهم وحوش أطلقت علينا. بعدها تابعوا نقلنا إلى موقع عسكري يسمى بئيري.

بقيت في الموقع لمدة تزيد عن عشرة أيام، مكبل اليدين معصوب العينين، حيث نجلس القرفصاء لمدة تزيد عن سبع ساعات يومياً. ظلّ ألم تلك الجلسة مرافقاً لي طول فترة احتجازي، وكنت أنتظر التحقيق بفارغ الصبر. كنت أريد أن أفهم لماذا أنا هنا؟ وما التهمة الموجهة إليّ؟ كنت أريد أن تتاح لي فرصة الحديث لأدافع عن نفسي. ويتوقف هذا العذاب. بدأت أيام التحقيق الثلاثة. في الجلسات الأولى للتحقيق، أدخلوني إلى جهاز فحص الكذب. سماعة كبيرة على رأسي وجهاز رقمي يتولى سؤالي، وكانت الإجابة بحركة العين. تبعها تحقيق مع ضابط في جهاز الاستخبارات يتقن العربية. سألني ثلاثة أسئلة: أين كنت في 7 أكتوبر؟ أين أماكن الأنفاق؟ أين أماكن الأسرى؟

كان التحقيق ينقسم إلى قسمين، ساعة من الاستجواب وست ساعات من الشَبْح. لقد استمر هذا الحال على مدار الأيام الثلاثة. في اليوم الأخير للتحقيق، جاء الضابط بهاتفي المحمول ليفاجأ بصور وفيديوهات الأطفال الضحايا جراء القصف. كنت قد صوّرتهم أثناء تغطيتي للأحداث في مجمع الشفاء. قلت للضابط هؤلاء هم ضحايا هذه الحرب؛ مدنيون لا ذنب لهم. أقنع الضابط نفسه أنّ هؤلاء المدنيين سيكبرون وسيصبحون إرهابيين، فلا مشكلة في قتلهم وأخبرني أنهم من فرحوا وتناولوا الحلوى يوم السابع من أكتوبر. كان تبريراً سافراً للقتل وللعقاب الجماعي.

بعد أن أمضيت عشرة أيام في موقع بئيري، نُقلت إلى موقع آخر... فتحت عينيّ، ووجدت كلمة شرطة بالإنكليزية، فقلتُ إنه لن يفرج عني كما خيّل إليّ. في بداية الاحتجاز، في الموقع الجديد، عبرتُ من خلال عدة «براكسات» إذ أدخلوني في قفص وأطلقوا كلباً يهاجمني لترهيبي، ثم مررت بعدها عبر «بركس» آخر، بعد أن ادّعى الجندي أنّ هناك طبيباً ينتظرني، لكني فوجئت بستة رجال من أشداء البنية. سألتُ: «أين الطبيب؟» فجاء الجواب بانهيال الستة ضرباً عليّ، مع لكمي في وجهي لتنهمر الدماء غزيرة، وكدتُ أفقد وعيي لشدة ما عانيت، حتى جاء الطبيب وقال: «فيك إشي؟!» أجبته: «زي ما انت شايف!». طلب مني أن أكشف عن جسمي، والصدمة أنه قال لهم: «تابعوا هذا لا يعقل». استمروا بضربي لمدة تزيد عن خمس عشرة دقيقة، بعدها طلبوا مني الوقوف لالتقاط صورة وعلم إسرائيل خلفي. طلبوا مني الابتسام للصورة لكنهم تبصروا أن مظهر الجروح والدماء في وجهي ليس مناسباً لالتقاطها، فأرسلوني لغسل وجهي وتضميد الجروح. بعد ذلك، عرفت أنني الآن في سجن النقب حيث بقيت هناك 35 يوماً. الحياة في النقب هي حياة في خيمة تضم ثلاثين محتجزاً، لكلّ وجه قصته وأحلامه... ومثلي جلهم يجهلون سبب احتجازهم وتعذيبهم هنا. نتبادل أطراف الحديث صباحاً ونذرف الدمع شوقاً لأحبائنا مساء.

في النقب، تنام على سرير حديدي تلتحف بطانيتك بكلّ ما تملك من قوة، عسى أن يتسلل الدفء لجسدك في ليالي الصحراء الباردة. في اليوم الخامس والأربعين لاعتقالي، نودي علي مع مجموعة من المحتجزين. كنتُ أقول لأصدقاء الاعتقال بأنهم سينقلونني، فودعتهم وبكينا، فقد أصبحنا أكثر من عائلة.

أخذوني إلى مقرّ الإدارة صوروني، وطلبوا مني التوقيع على ورقة. عرفتُ حينها أنّه سيفرج عني قريباً. لم أصدّق. كان أقرب إلى الحلم. وبتُّ أحسب الدقائق للقاء عائلتي. لكنني فوجئت بنقلي إلى براكسات موقع بئر السبع... جننتُ وتدافعت الأفكار في عقلي هل يعقل بأنني سأظل هنا؟! ما الذي يحصل؟ طلبت الحديث مع أحد الجنود الذي اخبرني بأنه سيُفرج عني خلال أيام قليلة وهذا إجراء روتيني.

بعد خمسين يوماً من الاعتقال والتعذيب خرجت. كان يوم الثلاثاء، وكان اليوم الثاني من العام الجديد 2024، الساعة الثالثة فجراً. انتقلتُ بالباص مع عدد من المحتجزين إلى معبر كرم أبو سالم. لم أصدق أن قدميّ وطأتا مدينة رفح وبأنني صرتُ حراً مجدداً. أذكر أنني في المعبر قابلت رجل شرطة قال لي: «أهلك قلبوا الدنيا عليك». وأراني صوراً لي كانت عائلتي قد نشرتها في مناشدة للبحث عني فترة اعتقالي.

بعد ذلك، طلبت من موظف أمني قابلته الاتصال عبر هاتفه المحمول برقم ابن عمتي فرج وإخباره بخروجي. الموظف أخبرني بأن قريبك لا يصدقني، أمسكت الهاتف، وقلتُ له: «فرج هذا أنا، أنا عايش». أعطى الهاتف لوالدتي، فلم تصدق هي الأخرى، وها أنا أسمع صوتها بعد خمسين يوماً من الفقد... جاء أفراد عائلتي لاستقبالي في المعبر لقد عانقت الحياة فيهم مجدداً، وبكينا فرحاً وشوقاً.

عمل للفنانة الفلسطينية ملكة ابو عودة

سألني الضابط ثلاثة أسئلة: أين كنت في 7 أكتوبر؟ أين أماكن الأنفاق، أين أماكن الأسرى؟

هامش سردي

في السجن، لكلّ وجه قصته وتفاصيله المؤلمة وذكراه التي لا تنسى. مثلاً ،أبو لؤي رجل ستينيّ، كنت أرى في قسمات وجهه والدي. رجل تقيّ محب لكلّ من حوله، كان يبث فينا الصبر كلما شعر بأن الضيق خيم على خيمتنا، اعتقله الجيش من أمام منزله، بعد أن عذبوه أمام أفراد عائلته. أبو لؤي يجهل تماماً أسباب اعتقاله بخاصة أنه كان يعمل داخل الخط الأخضر قبل بدء الحرب بأيام.